المجريطي

فلسفته ومكتشفاته[1]

لمعالي محمد رضا الشبيبي
وزير معارف العراق سابقاً ورئيس نادي القلم العراقي

لم أكن اعرف عن ابي محمد احمد عمر بن رضاع المجريطي — امام فلاسفة الاندلس في الرياضيات والطبيعيات المتوفى سنة ٣٩٥هـ — اكثر من تسميته في الكتب العامية أو ترجمته ترجمة موجزة في أسفار التاريخ الى ان كانت سنة ١٣٣٢هـ اوسنة ١٩١٤م اذ ظفرت خلال التنقيب عن المخطوطات العربية القديمة بنسخة من كتاب « غاية الحكيم واحق النتيجتين بالتقديم » من بين مؤلفات المجريطي فتوفرت على دراسة الكتاب دراسة اتضح لي منها مرمى تفكير المجريطي وفلسفته وخلاصة بعض دروسه ومستنطاته بحيث اصبح في الوسع احاطة التمام المدلل على آرائه وافكاره في معظم كتب التاريخ

ذاع اسم المجريطي بما كتب لبعض مؤلفاته في العلوم الرياضية والفلكية من الانتشار وخصوصاً كتابيه « غاية الحكيم » و « رتبة الحكيم » وهما اشهر كتبه التي أوردها المؤلفون الذين عالجوا تاريخ نمو الحركة العلمية والفلسفية عند العرب او كتبوا في موضوعات العلوم وفي مقدمتهم ابن خلدون وشمس الدين السخاوي والقلقشندي وطاشكبري زاده وحاجي خليفة وغيرهم. وقد عول ابن خلدون على كتابي المجريطي السابقين في الفصول التالية من مقدمته.

١ — الكيمياء ، ٢ — السيمياء ، ٣ — الحكمة او العلوم العقلية وأقسامها ، ٤ — الفلاحة

اضف الى ما تقدم ان المجريطي هو صاحب « رسائل اخوان الصفاء » الاندلسية التي الفها على نمط « رسائل اخوان الصفاء » البصرية او العراقية فبذر بذرة التفكير الواسع في اذهان الاندلسيين على عهده فلم تلبث الفلسفة حتى ازدهرت في العصور التي تلت عصر المجريطي في الاندلس فظهر فيها ابن رشد وابن الصائغ وابن الطفيل وبني زهر وغيرهم من اعيان الحكماء والمفكرين وان لم نعثر على نسخة من رسائله الاخوانية المذكورة ولكن لاريب عندنا انه

(١) عن مجموعة نادي القلم العراقي (راجع باب مكتبة المقتطف)

اشتهر في تأليفها اثارة الاذهان وتدريبها على البحث العلمي عدا ما في كثير من فصول كتابه « غاية الحكيم »

نتج المجريطي كتابه المذكور خلال خمس أو ست سنوات وجمعه سنة ٣٢٦ مؤلفاً سمي أكثرها فيه . ويدلنا دراسة الكتاب على ان المجريطي (فضلاً عن كونه اماماً في العلوم الرياضية والطبيعية عارفاً بجميع فروعها) من جملة الاساتذة في الغرب وفي علم السياسة والاجتماع على الاجمال على ما يظهر لنا من لهجته ومن بعض ابحاثه في الكتاب . ويدل على النص المنقول له « ان الانسان اذا انفرد بعلم الحكمة النظرية والفلسفة سمي حكيماً وان جمع بين الحكمتين النظرية والعملية ونفذ فيهما كان نبيًّا » قال « ولا يكون هذا الا في افراد الناس وهذا الانسان أي النبي هو أكمل مراتب الانسانية وفي أعلى درجات السعادة وانما التي من جهتها او من أجلها يطلب كل خير وبالها ينتهي كل خير لأنها انما تطلب الفضائل لتكون سعداء ولا توصل الى ذلك الا باصلاح الاخلاق واصلاح المنزل واصلاح الأمة وجمعها على كلمة واحدة تقودهم الى السعادة والسعادة هي الخير المطلوب لذاته »

وكذلك يستنتج من مواضيع أخرى من كتابه انهُ فيلسوف يميل الى الفراسة الواسعة ولكنهُ يرجح العلوم الواقعية التي يؤيدها الحس والتجربة ولا يكاد يخضع الا لاحكام العدد والارقام في تفكيره . وما أكثر الشواهد التي عثرنا عليها في كتابه على ذلك . ومنها ما حكاه عن ثابت بن قرة المؤلف المشهور انهُ اجتمع بانسان كان بارعاً في الحساب . فقال ذلك الانسان لثابت « إن الله قادر على كل شيء » فقال له ثابت « أيقدر الله ان يجعل جملة الضروب خمسة في خمسة أقل من ٢٥ او أكثر من ذلك ؟ » فمكث البارع في الحساب ولم يحر جواباً . وقد نقلنا هذه الحكاية للتدليل على منحى تفكير المجريطي من حيث انهُ رياضي لا يقبل الجدل في الارقام . أما من حيث انهُ فيلسوف فانهُ لم يصرح لنا برأيه في هذا الشأن إذ من مقررات الفلسفة ان الجزم حتى في مثل هذه المسائل الرياضية البحتة عبث او غرور اذا كان يتضمن دعوى الاحاطة بخفائن الكون وأسراره الأزلية الغامضة

***

هذا وقد صير المجريطي نفسهُ تلميذاً لجابر بن حيان على بعد ما بينهما من المدة متخذاً منهُ قدوة يقتدي بها ؛ شديد التعظيم له ولآرائه ومستنبطاته في الرياضيات والطبيعيات . كثير الاقتباس من كتبه وقد أتى على جملة صالحة منها خصوصاً في العلوم التعليمية والطبيعية وفي علم الحيل أوردها باسمائها وأكثرها غير معروف ولا مذكور بين الكتب المنسوبة الى جابر بن حيان . أما رأيه في

الرازي « فانهُ استاذ جدير بأن تؤخذ المعارف عنهُ لكثرة بحثهِ ونظره في العلوم القديمة » وهي عبارتهُ بعينها . وهكذا رأيه في الكندي فقد رأيناه كثير الثناء عليه وعلى تبحره في العلوم وقد استطرف المجريطي له رسالة غريبة في موضوعها أذكر في رسالته هذه « كيفية بناء دولة العرب » وليس يكثر على الكندي يفسوف العرب ان يفكر في هذا الموضوع . وقال ابن ابي اصيبعة « ذكرتهُ في كتابي تاريخ فلاسفة العرب » . ومن ذلك يعلم ان المجريطي عالج هذا الموضوع الشيق — اعني تاريخ فلاسفة العرب خاصة — واقف فيه كتاباً الا اننا لم نعثر عليه بل لم نقف على ذكره الا في هذا الكتاب وقد ابحالنا المجريطي عليه — أي على تاريخ فلاسفة العرب — غير مرة فهو إذن من كتبهِ المفقودة . ومن الاعلام الذين اعتمد عليهم المجريطي ابو بكر بن وحشية وقد أكثر من النقل عن كتبهِ المترجمة عن النبطية في علم المذاليد وفي أصلا ؟ وفي الهندسة المائية وذلك على طريقة القدامى من سكان الرافدين كما انهُ أتى على كتابه في الفلاحة . ومنهم عطارد البابلي وهو رياضي قديم أكثر من النقل عنهُ وعن مؤلفاته خصوصاً كتابه « سر الاسرار »

وللمجريطي في كتابه «غاية الحكيم» أسلوب خاص في تلقيب بعض المؤلفين او الفلاسفة بألقاب يخلعها عليهم من تلقاء نفسه وأكثرها مطابق لمقتضى الحال كقوله « افلاطون » « المبرز » او « المقدم » وكقوله « رئيس الصناعة الاحكامية بطليموس » ويقصد بهذه الصناعة صناعة الميقات والتقويم وهي الصناعة التي برز بها بطليموس وألف بها مؤلفاته المشهورة في الاسكندرية وكقوله « سيد يونان على الحقيقة وأولاهم بالفضل أرسطو » الى غير ذلك

***

ويستفيد من هذا الكتاب (اعني كتاب « غاية الحكيم » للمجريطي) من يعنى بدراسة تاريخ الحضارة في اقدم عصورها وتاريخ مستنبطات الامم الشرقية العريقة في القدم من انباط وأقباط وسريان وهنود وغيرهم ومكتشفاتها وجهودها في تقدم العمران . وقد أدرج فيه ايضاً كثيراً من اساطيرها وخرافاتها الوثنية فيما يتعلق بحقائق الاجرام الفلكية وقواها ودعوتها نحو ذلك مما هو دخيل في عقائد المسلمين او مقتبس من عقائد الامم الوثنية القديمة المذكورة

وللمجريطي في كتابه هذا أبحاث مقتضبة في الفلك والرياضيات وفي الكيمياء وفي تاريخ السحر وعلم الحيل وفي التاريخ الطبيعي وتأثير المنازل والبيئة في الكائنات . وقد عقد عدة فصول للبحث في مملكة المواليد الثلاثة خصوصاً ما وجد منها ببلاد الاندلس . ويستنتج من بحثه فيها ان لهُ مكتشفات عديدة في هذا . ولا أستبعد أنا والحالة هذه ان يكون لبعض آرائه وابحاثه اثر

في عمران الأندلس خصوصاً فيما يتصل بالهندسة والكيمياء وعلم المواليد الطبيعية وان سكت مؤرخونا عن ذلك كله على عادتهم المألوفة

ومع كل ما تقدم فان المؤلف ينتقد بالسيمياء او السحر وهما موضوع كتابه « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » كما ان موضوع كتابه الآخر المسمى « رتبة الحكيم » هو الكيمياء وهما (اي الكيمياء والسيمياء) النتيجتان المتحصلتان من جميع جهودنا الطبية حسبما يراه المجريطي كما انهما مفتاح الأسرار الطبيعية والرياضية ومن لم يصل اليها فليس بحكيم وان احكم نتيجة واحدة منهما فهو نصف حكيم على حد تعبيره لأن الكيمياء بحسب تعريفه هي معرفة الجواهر والأرواح (القوى) الارضية واستخراج لطائفها للانتفاع بها كما ان السيمياء هي معرفة القوى او الارواح العلوية لاستخدامها والانتفاع بها . ويقول في موضع آخر من الكتاب اعلم ان هذه النتيجة اي السيمياء هي المعبر عنها بالسحر وحقيقة السحر على الاطلاق كلها سحر العقول فانقادت اليه النفوس من جميع الأقوال والاعمال وهو علمي غامض الادراك ومنهُ عملي . وبالجملة السحر هو ما خفي على عقول الاكثر (الجمهور) سببهُ وصعُب استنباطه . وأحسن انواع السحر العلمي الكلام بشهادة الحديث المأثور ان من الكلام لسحراً ومن ذلك قول المؤيد افلاطون في كتاب الفصول « كما يرجع لك الصديق عدواً بالكلام اليسير كذلك ينقلب لك العدو صديقاً بالكلام الحسن اليسير . والسحر العملي هو الوقوف على المواليد الثلاثة وما أثبتت فيها من قوى . ومن أنواع السحر العملي السحر الخيلي » الى ان قال « لا يبلغ أحد الوقوف على تأثير العالم الأعلى (أي القوى العلوية) في العالم الأسفل الا بعد احكامه لجميع العلوم الرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعة أيضاً . » ثم شرح سبب ذلك قائلاً في الأخير « فاضطرار لا يعلم هذه الصناعة على الحقيقة الا من علم أوائلها وبالواجب ان لا يعلمها الا فيلسوف »

***

فمن ذلك ومن مواضع أخرى من كتاب المجريطي نعلم اجمالاً ان مدلول كلة « السحر » في ذهن المجريطي غير مدلولها الخرافي المألوف بل هو مدلولها في الاذهان الوقادة والافكار النيرة التي حاولت او هي تحاول دائماً تسخير قوى الطبيعة واخضاعها لاستخدامها في رفاه الانسان ورفع مستواه في سلم الحضارة والعلوم والعمران ومن هذا القبيل ساحر الكهربائية (ادیسون) وساحر البخار (وط) وغيرهما من سحرة الاثير والضوء والحرارة وسائر القوى الطبيعية المبثوثة في هذا الكون . فالمجريطي حسبما نراه في كتابه هذا مفكر او ساحر من هذا الطراز او يكاد يكون من هذا الطراز